بقال المحلة (أمين أسرار المجتمع المحلي)

أ.م. موفق ويســي محمود *

تأريخ التقديم: ٢٠١٣/١/٨ تأريخ القبول: ٢٠١٣/٥/٨

المقدمـــة:

أثارت المحلة العربية التقليدية اهتمام الباحثين فتصدوا لدراستها جغرافياً وحضرياً واقتصادياً ومعمارياً، وعلى الرغم من الأهمية الكبيرة لمثل هذه الدراسات فإنَّها تبدو كصور فوتوغرافية يمكن من خلالها قياس الأبعاد والتعرف بشكل دقيق على الحجوم والأعداد والمدخولات وبذلك نحصل على صورة واضحة ولكنها ثابتة للمحلة، وفي الوقت ذاته حجبت الجانب التفاعلي داخلها، وكيف تتفاعل أحداث الحياة اليومية فيها، وهي مهمة مقررة للأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية اللتين تهتمان بالحياة المعيش فيها، والخيوط غير المرئية للعلاقات الاجتماعية وقواعدها وقيمها، التي تربط الناس بعضهم ببعض وتحدد لهم مسارات التفاعل فيما بينهم. وهذا البحث محاولة أولى في مشروع طموح يسعى لاستكشاف هذه الحياة الداخلية.

تحديد مشكلة البحث:

تمثل المحلة مجتمعاً محلياً حضرياً، وخاصة في المدن العربية والشرق أوسطية القديمة فيمكن التعرف على نمطين متمايزين للسكن: المدينة القديمة أو نواة المدينة أو ما يعرف أحياناً بالقصبة، والمدينة الجديدة والتي هي الأحياء التي شيّدت فيما بعد مراحل النمو الحضري التي عرفتها المنطقة ابتداءً من مطلع القرن الماضي، ويبدو تباين هذين النمطين واضحاً في شكل البناء والمواد الأولية وفي استعمال الأرض، ففي مقابل تكور المدينة القديمة والتفاف أزقتها تنبسط المدينة الجديدة وتستقيم شوارعها حتى يبدو القسم القديم وكأنه مغلق على نفسه في حين يبدو القسم الجديد منفتحاً. هذين النمطين من السكن يعبران عن نمطين للعيش ليسا منفصلين عن بعضهما بالضرورة، ولكن اختلافهما بيّن فالعلاقات في المدينة القديمة أقرب إلى الأولية، فالأفراد يتبادلون تاريخاً حياتياً مشتركاً بحكم تعاقب الأجيال على السكن في دور أهاليها أو بالقرب منها فكل شخص يعرف أي شخص آخر في محلته وهذا ما يخلق شعوراً مشتركاً وعادات مشتركة وطرائق تفكير وطرق معيشة متشابهة، فمن البدهي أن تكون المحلة شبيهة بالمجتمع المحلي النموذجي وبذلك تكون عصية نسبياً على الباحث من خارجها.

* قسم علم الاجتماع/ كلية الآداب/ جامعة الموصل.

ويقف بقال المحلة نموذجاً مميزاً في حياة المحلة، فهو من جهة أحد أبنائها (في الغالب) أو اكتسب أحقية الانتماء إليها خلال سنوات طويلة من العمل فيها، وهو مع تمثيله نافذة اقتصادية توفر قسماً من احتياجات العيش اليومي لسكانها، فإنه أحد محاورها الاجتماعية والخبير بأحوال الناس فيها، والمؤتمن ضمنياً عليها، فعندما يخرج الرجال صباحاً إلى أعمالهم ويذهب الصبية إلى مدارسهم أو يرافقون آباءهم إلى أعمالهم، لا يبقى في المحلة سوى ربّات البيوت وأطفالهن الصغار . يبقى البقال في دكانه الصغير يراقب الزقاق ويتنبه على الغرباء، وإليه قد يعود أمر إنقاذ الموقف إذا حدثت مشكلة لأنه ببساطة موجود هناك باستمرار.

أهمية البحث:

جرت العادة أن تُدرس المحلة التقليدية في إطار بنائي أو بوسائل إحصائية، وهذه الدراسات رغم أهميتها لا تقدم لنا الصورة الداخلية المطلوب التعرف عليها، صورة: كيف يعيش الناس فيها وكيف يتفاعلون ؟ وكيف يدبرون أمور عيشهم اليومي، وما هو الإطار العام الذي يجمع كل هذا ؟ لذا كان هذا البحث مهماً لأنه محاولة للنفاذ إلى عمق المحلة والتسلل إلى حياتها اليومية عبر دكان البقال فيها.

أهداف البحث:

يحدد هذا البحث هدفين رئيسين:

الأول: التعرف على جانب من حياة المحلة التقليدية كما تجري بالناس و كما تجري حياتهم فيها.

الثاني: البحث في موقع بقال المحلة داخل نسيج المحلة الاجتماعي، والسعي لفهم أدواره العديدة فيها في إطار ثنائية (البيت – الدكان) وثنائية (المحلة القديمة – المدينة).

منهج البحث:

يستعمل هذا البحث المنهج الأنثروبولوجي(*)ووسائله في جمع البيانات، ويستعمل أيضاً السياق الثقافي في التحليل والكشف عن العلاقات في مجتمع البحث.

مجالات البحث:

المجال المكاني: مدينة الموصل القديمة.

المجال البشري: سكان مدينة الموصل القديمة.

المجال الزماني: تشرين الثاني ٢٠١١ – آذار ٢٠١٢.

(*) يتميز علم الإنسان بالنظرة الكلية الشاملة، أي المنهج الكلي التكاملي الذي يهدف إلى تحديد جميع عناصر الثقافة في مجتمع ما أنظر عاطف وصفي، الانثروبولوجيا الثقافية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، بدون تاريخ، ص ١٦.

تحديد المفاهيم والمصطلحات:

١. **البقــال:**

هو في اللغة بياع الأطعمة، وهي عامية، والصحيح البدال[١]، والملاحظ أن اللفظة وردت في باب المصدر (بقل) ومنه البقل والباقلاء، وهذا ما يؤكد أن عامية اللسان حافظت على المعنى المطلوب وهو العلاقة بالبقول، أي بمصدر الطعام اليومي للفقراء ومحدودي الدخل.

٢. **المحلة:**

المحلة في اللغة من الفعل حلَّ حلولاً في المكان وبالمكان، نزل فيه وبه والمحلة جمعها محال نقيض المرتحل أي: مكان الحلول، فالمحلة بذلك هي منزل الحلول[٢].

والمحلَّة بالفتح والمحل هو الموضع الذي يُحَلُّ فيه[٣].

ويعرفها عالم الجغرافية (كريستوفر) بأنها ((تنظيم اجتماعي من السكان يسكنون في موقع جغرافي متقارب، وهذا لا يشمل الروابط الاجتماعية بينهم فقط، بل يشمل جميع روابط تلك المجموعة مع الأفراد غير المتجاورين)) [٤].

والمورفولوجيا تعني المحلة أنّها تجمع عدد من المساكن تنظم العلاقات بينهم شبكة عضوية من المسالك والأزقة بترتيب يعلو مع الاقتراب من نقطة الجذب الرئيسة فيها، التي تستقطب استعمالات أرض مركزية يعبر عنها بالمباني الرئيسة ومنها الجامع[٥].

٣. **المجتمع المحلي:**

يختلف علماء الأنثروبولوجيا حول معنى هذا المصطلح، وهو يستعمل بمعانٍ كثيرة تدور حول أنواع مختلفة من جماعات يتميز أفرادها بهوية معينة، ولهم مصالح وقيم محددة ويقوم بعضهم حيال بعض بأدوار محددة[٦] .

والعناصر الأساسية في هذا التعريف نجدها تقريبا في كل التعريفات الأخر ففي الجانب اللغوي تعني Community جماعة ذات تنظيم مشترك أو مصالح مشتركة، أو جماعة عائشة في موطن واحد

---

(١) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دار المعرفة، بيروت، ط ٥، ٢٠١١، ص١٢٢.

(٢) البستاني، كرم وآخرون، المنجد في اللغة والإعلام، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٠، ص١٤٧.

(٣) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٥، ص٦٣.

(٤) Christopher , J. Smith , neighborhood , effect on mental health in geography and urban environment , progress in Research and Applications , New Delhi , , p.

(٥) الأشعب، خالص، المحلة العربية التقليدية بين الأصالة والتحديث، بيت الحكمة، بغداد، ١٩٩٨، ص٨.

(٦) سليم، شاكر مصطفى، قاموس الأنثروبولوجيا، جامعة الكويت، الكويت، ١٩٨١، ص١٩٢.

وفي ظل قوانين واحدة[١]، وبالفرنسية تعني Communauté، متحد، مجمَّع، طائفة، وهي مشتقة من Commun التي تعني عاماً، مشتركاً، شائعاً[٢]، فدائماً نجد الأفراد أعضاء في جماعة ومشتركين في نمط للحياة محدد.

ويمكن الإشارة إلى سلسلة من المعاني في مجال الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع تعرّف المصطلح في معناه الواسع بأنه أية جماعة من الأشخاص تتوحد من خلال المصالح المشتركة وبهذا المعنى تصير الجماعة الحرفية والتجمعات السكنية كالمدينة أو القرية أو أي قطاع داخل هذه الوحدات أو النوادي أو الروابط الطوعية، كل هذه تصير مجتمعات محلية[٣].

وبهذا يعني المجتمع المحلي العلاقات الشخصية أو علاقات وجه لوجه في إطار شبكة علاقات اجتماعية محدودة النطاق أو في إطار تجمع سكني[٤].

وتأسيساً يكون المجتمع المحلي بناءً اجتماعياً يتسم بعلاقات ونظم لها طابع خاص مثل التشابه في التكوين وقوة العلاقة، حيث تسوده الجماعات والعلاقات الأولية، والتقاليد والقيم المحلية وأساليب الضبط الاجتماعي غير الرسمية[٥] أو المجتمع المحلي حسب تعبير (لندنبرج) الأكثر اختصارا. هو جماعة عامة من الأفراد الذين يعيشون سوياً بصيغة عادية في علاقة مباشرة[٦].

ويتفق هذا التعريف مع تعريف (ماكيفر و بيج) بأنه أية جماعة صغيرة أو كبيرة يعيش أعضاؤها معاً بطريقة تترتب عليها ممارسة ظروف حياة مشتركة[٧] وفي تعريف آخر يحتوي الأفكار الأساسية نفسها يرى (وارنر) أن المجتمع المحلي هو عدد من الناس يشتركون في مصالح واهتمامات خاصة وسلوك وعواطف مشتركة تجعلهم ينتمون جماعة اجتماعية[٨]، ويلاحظ أن هذا التعريف يضيف السلوك والعواطف المشتركة وكأنه يتحدث عن نمط من العلاقات الداخلية بين أبناء المجتمع المحلي.

---

(١) البعلبكي، منير، المورد، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣٨، ٢٠٠٤.

(٢) عبد النور، جبور، وسهيل إدريس، المنهل، دار الآداب ودار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٧٧.

(٣) سميث، شارلوت سيمور، موسوعة علم الإنسان، ترجمة مجموعة من الأساتذة بإشراف محمد الجوهري، المركز القومي للترجمة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ط ٢، ٢٠٠٩، ص٤٦٨.

(٤) المصدر نفسه، ص٤٦٩.

(٥) سيد أحمد، غريب محمد، علم الاجتماع الحضري، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، ٢٠٠٥، ص١٤٢.

(٦) نفس المصدر والصفحة.

(٧) المصدر نفسه، ص١٤٤.

(٨) الجولاني، فاديه عمر، علم الاجتماع الحضري، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، جمهورية مصر العربية، ١٩٩٣ ص٣٠.

أولاً: المحلة:مجتمعاً محلياً:

ظهرت فكرة المحلة السكنية على الأغلب حينما ظهرت المدن والمجتمعات الحضرية، فالجيران هم ببساطة أناس يعيشون مع بعضهم جنباً إلى جنب ويشتركون بالمكان نفسه والفعاليات الحضرية نفسها وهم لذلك يشتركون في المشكلات الحضرية ذاتها.

والجيران هم أناس يرتبطون بصورة رئيسة ليس بالأصل المشترك ولكن بالقرب الفضائي لمحلات سكناهم(١)، فالناس في المحلة جيران وأقارب ونراهم يتبادلون الخدمات باستمرار ويشعرون بأنهم جزءٌ لايتجزأ(٢)، وهذا يوحي بأن نمطاً ثقافياً عاماً ينتج عن هذا العيش المشترك وهذا التفاعل اليومي يشعر أبناء المحلة الواحدة بدرجة معينة من الانتماء إلى محلتهم، مع علمنا أن علاقة هؤلاء الناس بعشائرهم الأصلية ضعيفة إن لم نقل مقطوعة مع ضعف في التنظيمات الحضرية غير الرسمية وغياب شبه كامل لمنظمات مجتمع مدني حقيقية، وفي ظل الحاجة الفعلية للحصول على الإسناد الاجتماعي فإن المحلة السكنية تظهر بوصفها بديلاً واقعياً يمكنه تلبية هذه الحاجة ذلك لأن المحلة السكنية تبدو من منظور العلاقات الاجتماعية مجتمعاً جغرافياً صغيراً في المدينة يسكن فيه عدد محدود من السكان يمكنهم التعامل مع بعضهم في حياتهم بقدر كبير من الحرية والعفوية فيتبادلون التحية إذا ما تلاقوا دون مواعيد مسبقة، ويمكن أن يتعاونوا في جوانب شتى تصل إلى استعارة حاجيات المنزل وأدواته(٣).

يبدو هذا وصفاً نموذجياً لمجتمع محلي مدني يمكنه أن يقدم وظيفة اجتماعية فيشعر الأفراد داخل مجتمعهم هذا بالقرب والألفة على عكس شعورهم بالبعد والغربة في المدينة الكبيرة، إنه نوع من الحصن الاجتماعي، ينطلقون منه في الصباح إلى ساحات المدينة فيتنافسون ويتصارعون ويجهدون للحصول على لقمة العيش أو فرصة العمل أو لتحسين أوضاعهم ومراكزهم الاجتماعية، وهم بذلك في حالة من التأهب والتوتر الدائم. . ثم يعودون إلى منازلهم في محلتهم حيث الأصدقاء والمعارف (جيران عُمر) وأصدقاء طفولة وقد يكونون أهلاً، ونسباء، فيخف التوتر وتجري الأمور بانسيابية في أزقة المحلة، ويتفقد الناس بعضهم البعض في مسجد المحلة، ثم تتلاشى آخر توترات الهموم مع قدح شاي وسيجارة أثناء لعبة نرد أو ورق في مقهى المحلة. في هذا المجتمع يتمتع الناس بالعلاقات المباشرة والشعور بالمكان(اجتماعياً وجغرافياً) الشعور بالانتماء إلى المكان الذي ولدَ فيه المرء والعائلة

(١) كمونة، حيدر، تخطيط المدن الجديدة، الموسوعة الثقافية عدد٤٢، دار الشؤون الثقافية العامة ، وزارة الثقافة، بغداد، ٢٠٠٧ ص٨٥.

(٢) ملا حويش، لؤي طه، تأثير نمط الإسكان الجديد على السلوك الاجتماعي، دراسة تطبيقية لسكان حي الصدامية في الكرخ أطروحة دكتوراه غير منشورة، مركز التخطيط الحضري والإقليمي، بغداد ١٩٩٩، ص٣٢.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

والأصدقاء، وذلك طبقاً للتقاليد القديمة الموروثة وفي ظل سيطرة العائلة والمؤسسة الدينية[١] إنها ثنائية (فرديناد تونيز) المجتمع المحلي Gemeinscheft / المجتمع Gesellscheft ولكنهما هنا لا يقعان على مسافة من بعضهما كما في المدينة والقرية ولكن يقع أحداهما في الآخر فيتماسان باستمرار، وعلى الأفراد الانتقال باستمرار بينهما فمجتمع المدينة الكبير ذو العلاقات السطحية وغير الشخصية القائمة على الحسابات وعلى الطبيعة التنافسية يحيط بمجتمع المحلة، فيكون على الأفراد المرور اليومي بل الحاجز بينهما، ليس فقط الحاجز الإسمنتي الذي يفصل الأحياء السكنية عن الشوارع العامة، وإنما عبر حاجز المعايير والقيم، ففي مقابل الصفة التنافسية وصراعات الغالب والمغلوب في المدينة، إذ يسعى كل فرد أن يكون غالباً مغلوباً تسود معايير اللا غالب ولا مغلوب في مجتمع المحلة، لأنه في المدينة يتواجه في الغالب أفراد مختلفو القوة متباينو السلطة والنفوذ وهو مايعبَّر عنه جزئياً بمظاهر الثروة فتنشأ علاقات الإخضاع والاستغلال في حين يتفاعل في مجتمع المحلة أفراد متقاربون في القوة وفي حظوظهم من السلطة والنفوذ والواضحة للعيان في تشابه مظاهر الثروة فتنشأ علاقات التكافل وتطييب الخواطر، وإن كان هذا لا يمنع وجود التنافس والرغبة في إظهار التفوق ولو بدرجات بسيطة، فصبغ واجهة البيت أو ترميم بعض تصدعاته، أو شراء فستان جديد للزوجة، أو شراء جهاز كهربائي منزلي يعد حدثاً يستوجب التفاخر، ومثل ذلك الفوز في لعبة النرد أو الورق أو التشارط في لعبة الدومينو عندما يحصل الرابح على علبة سجائر أو شطيرة وقدح من الشاي مجانيّين، وذلمك ماتطلق له عبارات التباهي والتلذذ بالانتصار. ولكنَّ ذلك لا يلبث أن يهدأ لأن الخلافات قد بلغت حدودها الدنيا لغياب التفاوت الاجتماعي ولاستحالة التمايز البيّن عن الآخرين[٢]، فلا أحد منهم قادر على العيش في مجتمع صراعات دائم، ولا شيء مما يملكونه يساعدهم على التفوق المستمر أو يسندهم في مجابهة دائمة، فلا يبقى لديهم سوى علاقات التساند بينهم إنهم بذلك يحاكون المحلة القديمة نفسها، يحاكون بيوتها المتعبة التي تتساند جدرانها لتشكل كتلة معمارية من وحدات هشة يتكئ كل منها على الأخرى حتى يبدو للناظر لو أن جداراً منها أنقض فإن بضعة بيوت ستتهاوى بعده. . وهنا في المحلة يشعر الأفراد بأنهم في أماكنهم الحقيقية فيؤكدون عضويتهم في هذا المجتمع المحلي من خلال اعتمادهم قيم الجماعة ومعاييرها، وإذا كان الذي يحدد انتماء الشخص إلى جماعة هو مدى ميله لتعريف ذاته بتلك الجماعة فيشير إليها عندما يصدر الحكم على نفسه عادّاً إياها جماعته المرجعية، وإذا كان الذي يحدد الجماعة

(١) لامبوس، ميشيل هارا، اتجاهات جديدة في علم الاجتماع، ترجمة د. إحسان الحسن وآخرون، بيت الحكمة، بغداد، ٢٠٠١ ص٣٣١.

(٢) لابورث – تولرا، فيليب، وجان بيار فارينية، اثنولوجيا انثروبولوجيا، ترجمة مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والبحوث (مجد)، بيروت، ٢٠٠٤، ص١١٧.

عند للشخص هو مدى فاعليتها له كجماعة مرجعية[١] فإن ذلك ملاحظ بشكل كبير بين أبناء المحلة خاصة عندما يتحدث الأفراد عن أنفسهم ورفاق صباهم فيؤكدون شعوراً بالالتزام تجاه بعضهم حتى إنَّه ليبدو أن للمحلة أبعادها الروحية المتأتية من الانتماء المكاني الواحد، والتلاحم الاجتماعي المتأتي من ظاهرة التجانس[٢] .

ثانياً: البيت في المحلة، التداخل المنقطع:

البيت هو الوحدة المعمارية الأساسية لتشكيل المحلة، ولأنه منتج ثقافي واجتماعي فهو يعكس طبيعة الحياة الاجتماعية، ويترجم مجموعة القيم والمعايير والمفاهيم السائدة، وإنَّ توزيع البيوت ضمن أيضاًمنطقة سكنية هو الترجمة المكانية للعلاقات الاجتماعية السائدة (علاقات القرابة، العلاقات بين الفئات والطوائف أو الطبقات، التمايز بين الجنسين وطبقات السن)، ومن جهة أخرى يرتبط شكل وحدة السكن وتنظيمها الداخلي ببنية الجماعة البيتية التي تقطنها[٣] ففي المحلة الموصلّية ذات الأزقة المتعرجة، التي تشكل شبكة ملتفة حول نفسها لا تفصح عن داخلها لغريب هذه المحلة كل ما فيها يتجه إلى الداخل، فتقود كل المنعرجات إلى زقاق رئيس أو باحة داخلية تصب فيها الأزقة الثانوية والأزقة العمياء[٤]، فإذا عكسنا اتجاه التحليل وانطلقنا من الزقاق الرئيس إلى الأزقة الثانوية الأضيق مساراً والأكثر تمويهاً وأكثر التصاقاً وحميمية، وصلنا إلى الأزقة العمياء حيث لا يمر عابر سبيل ولا يدخلها غريب فكأنها فناء داخلي للبيوت المطلة عليها .

هناك الجيران العلاقة بينهم قوية جداً، فقد يكونون أقارب، أو نسباء، أو على الأقل قد خلق توالي سكن الأجيال حقوقاً والتزامات على درجة من القوة تسمح باعتبار بعضهم البعض بمثابة الأهل وفي داخل هذه الشبكة الملتفة حول نفسها يتكور البيت الموصلّي على نفسه محمياً بجدار سميك أصم أو شبه أصم، مدخله منكسر فلا يُرى داخله وشبابيكه عالية ومحصنة، وفناؤه المفتوح تجاه السماء محمي شرعياً وأخلاقياً. .

ويُفهم من ذلك أن درجات متنوعة من الخاص والعام تتدرج على سلمها العلاقات فأبناء المحلة الواحدة يشتركون في قيم ومعايير وأنماط وسلوك تجعل من محلتهم مجتمعاً محلياً، ولكن الساكنين على مجرى الزقاق الرئيس يتصلون بالمارة والباعة المتجولين وبالأحداث العامة أكثر من

(١) الجولاني، فادية عمر، مصدر سابق، ص٣٢.

(٢) الأشعب، خالص، مصدر سابق، ص١٩.

(٣) بوينت، بيار، وميشال ايزاك، معجم الاثنولوجيا والانثروبولوجيا، ترجمة مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع (مجد)، بيروت، ٢٠٠٦، ص٨٥٠.

(٤) المسدودة النهاية.

ساكني الأزقة الفرعية أو المغلقة، فهم بذلك أقرب إلى العام، وكلما اتجهنا صوب الأزقة الأضيق ضاق المجال العام وألتصق بالمجال الخاص، وصولاً إلى البيت الذي يحجب الخصوصية الشخصية بعيداً من الأنظار خلف جدرانه الخارجية الحاجبة[1].

وهكذا يتشارك الأفراد في العام ويستأثرون لأنفسهم بالخاص داخل البيت الذي يحرص الموصلي على أن يكون معزولاً بما يتيح له حرية شخصية أوسع ويعبَّر عن ذلك بالقول: إن البيت هو (المكان الذي يأخذ فيه المرء راحته) وهذا لا تعني أن يستريح وإنما التحرر من شروط الحياة الاجتماعية وقيودها. . وهكذا يتحرك ابن المحلة بين مجالين، الخاص الذي يمثله البيت والذي يحرص أن لا يعرف عنه الآخرون شيئاً – مع أنَّ هذا لا يتحقق دوماً – والعام الذي يتشارك فيه مع أبناء المحلة، يمكن أن يتحول إلى خاص بدرجة معينة أمام العام الذي تمثله المدينة والذي هو أقرب إلى الانفتاح والمشاع. وهكذا تبدو المدينة القديمة سلسلة من الالتفافات على بعضها .

يوفر لنا هذا التحليل إمكانية تصوير العلاقة بين البيت والزقاق والمحلة بالتداخل المنقطع، فجدران البيت الصماء والسميكة لا توفر عزلاً نهائياً، والزقاق الملتف ليس منقطعاً تماماً عن الشارع الرئيس.

وأمواج المدينة تنساب إلى داخل المحلة عبر أزقتها، طغيان اقتصادي، وتعليمات أمنية وإدارية، وأحداث جامحة، ولكنَّ صداها اخفت كلما توغلنا في عمق شبكة الأزقة، وفي كل مرة تنسحب إلى مجراها العام وتعاود الحياة داخل أزقة المحلة سيرها .

والزقاق الفرعي ليس منقطعاً تماماً عن الزقاق الرئيس فيعبر السابل بل يشترك معه في أجزاء من حياته. فمنه يحصل على قسم من احتياجاته اليومية، وفيه يترصد مرور باعة قناني الغاز المسال، وعربات بيع الخضراوات أو جامعي نخالة الطحين وشراة الأثاث القديم والأواني البلاستيكية المستهلكة. . فيحصل على قوت يومه ويبيع ما زاد عن حاجته فيحصل بها على نواة تسند زيراً إلى أمد.

والبيت مجال خاص ليس منقطعا عن مجال الزقاق العام، فبرغم الحرص الشديد لا بد من أن تتسرب بعض من خصوصيات الخاص إلى العام، كما تتسلل بعض من عموميات الزقاق إلى مجال البيت الخاص، ولكن حتى هذه التسربات من الخاص إلى العام تكون محمية بأعراف اجتماعية متفقة على التجاهل والتظاهر بأن أسرار البيت مصانة، وإذا وجد من يهمس ببعضها فلن يكون ذلك بحضور صاحب العلاقة. ولذلك أسباب منها أن معرفة أشياء من خاص البيت إما أن تدل على التسمع والتجسس وهما مرفوضان اجتماعياً أو أن الجميع يدرك أن تلاصق البيوت والأفنية المفتوحة قد يكشف شيئاً من أسرار أي بيت، لذا فإن التواطؤ على السكوت يعني حماية أسرار الجميع، فلا يمكن منع

(١) بوينت ن بيار، وميشال ايزاك، مصدر سابق، ص٨٥٠.

صراخ الرجل ولا بكاء وعويل المرأة أثناء مشاجرة يبرحها فيها ضرباً من تجاوز جدران البيت، فالجميع تقريباً يفعل هذا والتعريض به يفتح باباً ضد الجميع، ولكن الخصوصيات الأخر، تبقى محمية إما بالصمت أو بالكذب أو التظاهر فينقطع التداخل بين البيت (المجال الخاص) والزقاق (المجال العام).

ثالثاً: بقال المحلة: الانقطاع المتداخل:

في الالتفافات والتشعبات اللانهائية لأزقة المدينة القديمة نعثر على أبنية منفردة ذات وظيفة عامة منها المسجد والحمام العمومي والمقهى، وهم يتصلون بالحياة اليومية اتصالاً وظيفياً، فلأنَّه لا توجد حمامات في البيوت ولا يمكن الاستحمام في الفناء للنساء في فصل الصيف وللجميع في فصل الشتاء يصير الحمام العام ضرورة وظيفية إلى الحد الذي صار فيه بعضها مشهوراً ويعد نقطة دالة للبيوت المحيطة وإن أنحسر دوره مؤخراً بدرجة كبيرة . ولأن الصلاة في المسجد ذات دلالة دينية واجتماعية، ولأن إنشاء المساجد تجارة مربحة دينياً وضمانة أخروية كبيرة انتشرت المساجد وصار لكل محلة مسجدها، وعدد من المساجد يتوزع بين الأزقة وبعضها صغير جداً. وقد عرفت العديد من المحلات بأسماء مساجدها، والمقهى ملاذ الجميع من العاطلين عن العمل والعاملين، الشباب وكبار السن، ومهرب للبعض من ضجيج البيت إلى صخب الزقاق وهو لآخرين منتدى بث الهموم وتبادل الأخبار، ويرتاده آخرون؛ لأنه لا مكان آخر للذهاب إليه، وليس من المقبول القعود في البيت مع النساء. وفي كل محلة نجد بقالاً يبيع الاحتياجات اليومية لأبنائها، ففي ظل ظروف الحصار الاقتصادي ١٩٩١ – ٢٠٠٣ الجائر والبطالة التي خلّفها الاحتلال ٢٠٠٣ ظهر في كل زقاق بقال) والظاهرة قديمة جداً حتى إنَّ بعض المحلات عرفت بأسماء بقاليها وصار للبعض الآخر نقطة دالة. وظيفة هذا البقال أن يقدم من الاحتياجات اليومية ما يبدو في الغالب قليل الأهمية، ولكن لا تستقيم الحياة بدونه، مثل السكر والشاي والصابون والإبر والخيوط ومعجون الطماطم وأفخاذ الدجاج المجمدة وغيرها، وهذا ما يجعل حانوت البقال مخزناً لدعم ربة البيت في أعمالها اليومية . وإذا أضفنا شفرات الحلاقة وعلب السجائر دخل الحانوت في دائرة اهتمامات الرجل وبالحلوى والمثلجات يدخل في دائرة الأطفال فتكتمل الدائرة. وهكذا يتشابه مع الحمام والمقهى والمسجد في أهميته الوظيفية، ولكنه يختلف عنهم في أنه ليس مستقلاً بنائياً، فدكان البقال في الغالب هو واحدة من غرف البيت من جهة الزقاق لم يكن يفصلها عنه سوى حائط أصم أو شباك بقضبان حديدية، فكُسر الحائط أو أزيل الشباك ووسع مكانه فصار واجهة الدكان المطلة على الزقاق، واحتفظ بباب الغرفة الأصلي المطل على البيت، فصار الدكان يتصل عن طريق واجهته بالزقاق ويتصل بالبيت عن طريق بابه باب الغرفة سابقاً. والبقال كأنه يعمل في دكانه ويجلس في بيته في آن واحد. يمكنه أن يلبي طلبات زبائنه وعند فراغه يواصل الحديث مع أهل بيته، ويتناول أقداح الشاي التي تعدها زوجته أو ابنته، وقد يقدم لأصدقائه. فهو بذلك على

اتصال مستمر بعالمين في آن واحد، عالم الزقاق (المجال العام) وعالم البيت (المجال الخاص) وهذا ما يجعل من البقال نقطة اتصال العالمين / المجالين ويصير دكانه الممر المفضي بينهما، إنه النقطة التي تتسلل منها أحداث العالم الخارجي إلى الفناء الخاص، وخاصةً في الأوقات والأماكن حيث النساء يطوين حياتهن خلف جدران المنازل أو يطوينها خلف جدران الجهل وعدم الاهتمام. فأحداث عالم المدينة يتردد صداها في المحلة وتتسرب عبر أزقتها، وتعاد روايتها وتلمّس مخاطرها أو آمالها في متداول الكلام واحتدامه في المقهى والمسجد وعلى ناصية دكان البقال فتنفذ من خلال بابه الخلفي إلى باحة الدار العالم الخاص للعائلة ولنسائها خاصة، اللاتي من خلالهن يتردد صداها في منازل العائلات المجاورة أثناء لقاء عابر على الباب عند غدو أو رواح أو حين زيارة في عصر يوم قائض أو في الأحاديث التي تدور بينهن على أسطح المنازل عند نشر الغسيل أو تجفيف الخضراوات، أو عند الصعود إلى أسطح المنزل لتناول الغداء في يوم ربيعي مشمس. . هكذا يقتحم العالم الخارجي (المجال العام) حياة البيوت المنطوية على نفسها، وفي الاتجاه المعاكس تتسرب نتف وأجزاء حكايات من داخل البيوت (المجال الخاص) إلى الزقاق والمقهى والمسجد، فيعاد تجميع الأجزاء بحثاً عن صورة أوضح لمشكلة هنا أو خبر سعيد يتكتم عليه خوف الحسد، نجاح أو فشل. وهذا مايتطلب أحياناً التعليقات والتأويلات ومحاولات التدخل فتنعكس تغذية مرتدة عند عتبة دكان البقال وتنفذ إلى داخل المجال الخاص صورة جديدة مكون بعضها من أجزاء حقيقية والبعض الآخر من تصورات وأقاويل فتدور الهمهمات المستنكرة والاعتراضات الغاضبة وتقدم التصحيحات والتصويبات لتنفذ في طريق عودتها من المجال الخاص إلى المجال العام، وهكذا دواليك تستمر حركة التفاعل اليومي والحميم بين عالمين يظن الناس أو يتمنون أنهما منفصلين ولكنَّها متصلان بأكثر من منفذ وبأكثر من وشيجة، والناس في المحلة يجهلون أو يتجاهلون أن عالمهم الداخلي مكشوف وأن العالم الخارجي غير محجوب.

رابعاً: البقال: أمين سر المحلة:

دكان البقال ليس المنفذ الوحيد بين عالمين (الخاص / البيت والعام / الزقاق) بل هو أهمها بحكم اشتماله على مجموعة من الأسباب، فدكان البقال محل عمل ملتصق بالبيت ومطل على الزقاق، فحينما يعمل الرجال خارج المحلة حيث سوق المدينة ودوائر الدولة فيها يعمل البقال في المحلة لصيقاً بداره ومجاوراً دائماً لجيرانه، باستثناء زيارة أسبوعية أو نصف شهرية للسوق التجاري للتبضع وتسديد ديون الوجبة السابقة، فهو يبقى في المحلة طوال الوقت الذي تخلو فيه من الرجال. وفي مجتمع رجولي النزعة يتوقع منه أن يكون عوضاً عن الساعين في دروب المدينة بحثاً عن أقوات أيامهم، فإذا دهم الزقاق خطب كان عليه أن يكون حاضراً للمساعدة، وإذا مرَّ غريب عدة مرات كان عليه أن يستوقفه يسأله عن حاجته مشعراً إياه بوجود عين رقيبة، وإذا نشدت امرأة عونه كان عليه أن يلبي فالجميع أهل

والمسؤولية عليها واجبة وهو ما يعبر عنه بالقول (الكبيرة أمي والصغيرة أختي أو ابنتي) . ويبدو أَنَّ وجود البقال يمنح إحساساً نسبياً بالأمان يتضح بقبول تدخله في بعض القضايا والمشكلات التي تحدث بوصفه أمراً مفروغاً منه وكلما كان البقال أكبر سناً وأقدم سكناً في المحلة كان له دور أكبر، يحكم كل ذلك مجموعة من القواعد والأعراف في مقدمتها أن لا يتدخل في الأمور الخاصة بالبيت ما لم تُطلب مساعدته، وهو يُعد ملاذاً اجتماعيا لأنه لا يفرط بسر حتى إنَّه يتجاهل أو ينكر معرفته بما يحدث لدى الجيران وهذا ما يشجع بعض النسوة (وبخاصةً المسنات) أن تبوح له ببعض أسرارها وشكواها وهي تشتري منه، فابنها البكر مذ تزوج لا يسمع سوى كلام زوجته التي تنام حتى الظهر ولا تساعد في أعمال البيت، وعمل ابنها الصغير لا يدر دخلاً كافياً، ومصاريف العلاج كبيرة، وزوج ابنتها لا يدع ابنتها تأتي لمساعدة أمها، وهي في هذا لا تبحث عن حل لمشكلاتها بقدر حاجتها إلى التحدث مع أحدٍ ما. وعادةً يسمع البقال شكواها ويطيّب خاطرها أو يتظاهر بذلك، ولكنه في كل الأحوال يزداد اطلاعاً على أحوال البيوت من حوله، فإذا أضفنا معرفته بالحالة الاقتصادية لهذه الأُسر، علمنا مقدار اطّلاعه فبحكم تعامله مع الاحتياجات اليومية لمطابخ الأُسر من حوله يقدر على التمييز بين الإمكانات المالية لكل بيت والفروقات النسبية في قدراتهم الشرائية، ففيهم من يقتصر على شراء الحاجات في حدها الأدنى ومنهم من يتوسع ليشتري بكميات أكبر أو يشتري أشياء تُعد كمالية مما يدل على وجود فائض في الدخل، وبعضهم يستدين من البقال إلى حين استلام الراتب التقاعدي أو العثور على عمل . أو إلى ميسرة وإن كان الأجل المتوقع لسداد الدين وفي الغالب شهراً واحداً يُعبر عنه بـ(رأس الشهر) لكنَّ بعضهم يخفقون في تسديد ديونهم فيمهلهم مدة إضافية ثم تبدأ المطالبات بالتسديد، وكل ذلك موثق في دفتر خاص على رأس كل صفحة اسم رب العائلة أو كنيته (بيت أبو فلان) أو الاسم الذي اشتهرت به (البيت الفلاني)، وتوثق الصفحة كل الأشياء التي أخذتها الأسرة وكل المبالغ التي استلمها كدفعات من الحساب ويتذمر بعض البقالين بسبب تأخر السداد ويتحدثون عن ديون كبيرة (هذه الديون الكبيرة بحدود ٥٠ دولاراً)، ولكن في الغالب يميّز البقال بين ديون أسرة تعاني من ضائقة مالية وأخرى تبدو قادرة على الدفع ولكن رب الأسرة يماطل، فيتعامل مع كل واحدة بأسلوب مختلف. .

كل هذا يجعل البقال أكثر إطلاعاً على أحوال البيوت وأكثر معرفة بالأشخاص؛ ولذا يقصده الناس إذا أرادوا الاستفسار عن فتى طالب للزواج أو فتاة مرشحة للزواج خاصةً من قبل أناس من خارج المحلة أو حتى من خارج الزقاق أيضاً فبوصفه الرقيب والمطّلع على جزء كبير من أحوال الناس فهو قادر على تقديم النصيحة بهذا الشأن وإن كان في الغالب لا يتحدث عن أحد بسوء، وإذا لم يرد أن يعطي رأياً إيجابياً اكتفى بالقول (لا أَعرفه / لا أعرفها جيداً، اسألوا غيري) وهي عبارة يُفهم منها وجود مؤشر سلبي، ولأنه يعد أميناً على أسرار الناس لا يحق له إفشاء أي منها، كل هذا يمنحه الكثير

من التأثير الاجتماعي، فمعرفته بالمحلة قوة، وحاجتهم إليه قوة، وهم يحتاجونه في كثير من الأمور الأخر، فالغائب عن بيته يطلب من البقال الانتباه إلى البيت، ومن أراد بيع بيته ترك خبراً عند البقال وفي أحايين كثيرة يترك أصحاب البيوت القريبة مفتاح البيت عنده، فبحكم أن الأبواب في غالبيتها من النوع الثقيل ولكل منها مفتاح حديدي ثقيل يكون من الأصوب أن يترك المفتاح عند البقال آخر من يغادر لكي يأخذه من يعود أولاً. . والبقال أمين على كل هذا يشعر بمسؤوليته الاجتماعية والأخلاقية تجاه الجميع ومنهم الأطفال الذين يلعبون في الزقاق فهو يعرفهم جيداً ويعرف كل واحد منهم ابن من هو؟ ويتابع سلوكهم وتصرفاتهم ومشاجراتهم وكثيراً ما يتدخل بالنصح والإرشاد إذا لاحظ تصرفات غير مقبولة، وربما يبلغ أولياء أمورهم بها.

وبهذا تبدو لنا دكان البقال عيناً مفتوحة على الحياة في المحلة تتابع مايقع فيها وتسجل أحداثها، وعيناً نصف مفتوحة على حياة البيوت المتلاصقة تتلمسها وتغض النظر عن كثير من أحداثها في إطار متداخل من الأعراف الاجتماعية والمصلحة المتبادلة والتجاهل الإجباري الذي يولّده أن الكثير مما يجري في المحلة وفي الزقاق خاصة معروف؛ لسلامة الجميع وللحفاظ على إمكانية الاستمرار بالعيش مسكوت عنه.

الخاتمـــة

في كل مكان وكل زمان الأمور تتغير، وبسبب الأوضاع الصعبة التي مرت بها المدينة والركود الاقتصادي وضيق مجالات العمل وتفشي البطالة فإن دكاكين كثيرة ظهرت في الأزقة، كما ظهرت مناضد للبيع عند منعطفاتها أو حيثما يتسع في ضيق الزقاق، وخلف الأبناء آباءهم في دكاكينهم، لذا فإن تغييرات مهمة بدأت في علاقة البقال الجديد مع أهل محلته، منها انحسارات في العلاقة الاجتماعية وإن لم تتراكم حتى الآن لتصير ظاهرة جديدة، ولكنَّ بعض الحالات يمكن وصفها بأنها خدش في الصورة التقليدية وقعت منها حادثتان أُجبر أبناء المحلة فيها البقال على إغلاق دكانه لأسباب (أخلاقية) . ومن الجدير بالذكر أن العلاقة الموصوفة في هذا البحث تعرضت للتغيير كثيراً في المحلات التي دهمتها الأسواق التجارية، فحلّت المصلحة الاقتصادية في علاقات البقال الذي أبدل محتويات دكّانه بمواد تجارية بمحتويات؛ مما يتعامل بها السوق القريب. ولكن كلما توغلنا في داخل شبكة الأزقة المؤلفة للمحلة طالعتنا من جديد الصورة التقليدية القديمة ذاتها لبقال المحلة.

The Grocer of Neighborhood

Asst. Prof. Muwafaq Waisi Mahmood

Abstract

This research seeks to explain the role of grocer of neighborhood in the social life It studies two basic facts :

First : The grocer works in the neighborhood , while the other men working on the outside .

Second : The grocer 's shop is part of his own home , and so this becomes an outlet shop between public life that takes place in the alley and between private life that takes place behind the walls of the house

Because of this unique situation for the work and life of the grocer he became secretary of the inner affairs of his neighbors (Clients) also became the guardian of the locality (its market sector) and because it relates to the market trading of the city and because of the security situation has become somewhat (who knows) which has given him a role cannot be ignored .